

ماذا رأيت في النجف الأشرف

الأستاذ روكس بن زائد العزيمي (*)

تعتز مدينة النجف بأنها تضم ضريح الإمام علي بن أبي طالب أسد الإسلام وقديسه. ومدينة النجف واقعة في طرف الصحراء مناخها صحراوي حار جاف صيفاً بارداً قارس شتاءً ترتفع عن سطح البحر نحو مائة وثلاثين قدماً. وهي واقعة غربي بغداد، على بعد مائة وثمانين كيلومتراً تقريباً. بقي موقع مرقد الإمام علي عليه السلام في النجف سراً، خوفاً من الأمويين أن ينبشوا قبره. وبقي كل مدة الأمويين لم يشيد له ضريح، وأول من شيد له ضريحاً الخليفة هارون الرشيد، فأخذ الناس منذ ذلك التاريخ ينزلون بجوار الضريح تبركاً. ولما زار الرحالة ابن بطوطة النجف قال: إن أهل النجف «أهل شجاعة وكرم لا يضام جارهم صحبتهم في الأسفار فحمدت صحبتهم». وما زال الذين قال عليهم ابن بطوطة صحيحاً، كأنما هو إرث في دمائهم.



والروضة المقدسة التي تضم قبر الإمام مربعة الشكل، مفروشة بالرخام الثمين، وقد جللت الجدران جميعها بالمرايا الملونة ذات الزخارف المذهلة والفسيفساء الرائعة. ولها ستة أبواب منها باب ذهب مطعم بالميناء والحجارة الكريمة في غاية الروعة والإتقان قام بصياغته أمهر الصياغ الإيرانيين في إيران وقد كتب في أعلى الباب ما نصه:
قال الرسول ﷺ: «علي مع الحق والحق مع علي ولن يفترقا حتى يردا علي الحوض».



أما المآذن فمغشاة بالذهب الإبريز. والمصلون والزوار تبدو عليهم علامات الخشوع والحزن.

(*) أديب كبير، من أعلام الثقافة والأدب والفكر في الأردن - عمان (ت)
عن: مجلة العدل النجفية، السنة ٣، ع ٧٦، حزيران ١٩٦٨م.

وتمتاز مدينة النجف بكثرة مدارسها، وأشهرها جامعة النجف الدينية زرناها مع الأستاذ البحاث الكبير (جعفر الخليلي) مؤلف موسوعة العتبات المقدسة وصاحب دار التعارف، وصاحب (الفجر الصادق) ومجلة (الهاتف) المحتجة، والمؤلفات الشهيرة. والسيد الوجيه (هاشم شبر) فاستقبلنا مدير الجامعة العلامة السيد محمد كلانتر بوجه ترتسم عليه علامات اللطف والأريحية والطمأنينة الدينية هذه الجامعة تحتوي على (٢٠٨) مائتين وثمانين غرف يقيم فيها طلبة داخليون لكل منهم غرفة خاصة.

والبناء مؤلف من ثلاثة أدوار عدا الدور الأرضي الذي يضم السرايب التي يلجأ إليها عند اشتداد الحر وفي البناء مرافق فسيحة، للطبخ والغسيل. وفي الجامعة مكتبة عامرة بالمراجع الدينية النفيسة.



وحياة طلاب المدارس الدينية في النجف وقف على العلم، فعند قبول الطالب تخصص له غرفة مفروشة مجهزة بالكهرباء، هذا في جامعة النجف. لأن هذه الجامعة تم بناؤها سنة ١٣٨٢هـ/١٩٦٢م ومساحتها خمسة آلاف متر مربع.



وللنجف ميزة لا تكاد تشاركها فيها مدينة، أعني كثرة خزائن الكتب العامة والخاصة فيها، وخزائن كتب النجف تشتمل على عدد كثير من الكتب النادرة التي ضاعت أصولها ولا يوجد منها إلا نسخ معينة، قد لا توجد في غير خزائن كتب النجف! وليس في مكتبتنا أن نحصي تلك الكنوز في مقال نكتبه في جريدة يومية، أو مجلة، لكن الذي نستطيع أن نجمله هو أن النجف تعتبر مكتباتها أعظم المراجع في البحوث العلمية المختلفة.



تقول موسوعة العتبات المقدسة نقلاً عن جريدة كل شيء البغدادية في عددها البارز نهار الاثنين ١٩٦٦/٤/٢٥ أن الأستاذ (هارفر) أستاذ الدراسات الإسلامية بجامعة (ليبرنيج) قال: «ما زال النجف الأشرف منطلق الإشعاع الفكري العربي، وما زالت كنوزه الفكرية والأدبية والثقافية تبث الأنوار في الأفكار، والخير في النفوس، وما زالت مكتباته تعج بأنفس الأسفار مما جعلها دائماً في مقدمة المكتبات العالمية»^(١).



(١) موسوعة العتبات المقدسة - قسم النجف رقم ٢ صفحة ٢١٥-٣١٦ تأليف جعفر الخليلي. نشر دار المعارف.

وتنفرد النجف -لعلها بين كل البلاد العربية- بأن للكتاب فيها أعظم شأن بحيث يمكن جعل الكتاب رهينة عن مبلغ قد يفوق ثمنه الأصلي.
وللكتب سوق تعرف بسوق المزاد يعقد في كل يوم خميس ويوم جمعة من الأسبوع وهما اليومان اللذان تعطل فيهما الدراسة في النجف فيقبل الأساتذة وشيوخ العلم والهواة على السوق ويأخذون في المزايدة.

وقد اشتهر في النجف الأشرف جماعة من ذوي الخبرة الممتازة بالكتب النادرة.
ومن الغريب أن سوق المزاد هذه ذكرت قديماً وما زالت قائمة في النجف إلى يومنا هذا.



ومن مكاتب النجف المشهورة (مكتبة الإمام أمير المؤمنين عليه السلام) التي أنشأها الشيخ عبد الحسين الأميني وهي تضم نحو ثلاثين ألف كتاب منها ثلاثة آلاف وستمائة كتاب مخطوط، مع أنه لم يمض على تأسيسها سوى ثلاث وثلاثين سنة إذ أنشأها سنة ١٣٥٢ هـ.
وقد شاد لحفظ هذه النفائس خزانة على أحدث هندسة وجعل فيها قاعة منظمة للقراءة والمطالعة.



ومن خزائن الكتب المشهورة في النجف وفي البلاد العربية مكتبة الإمام الشيخ محمد الحسين كاشف الغطاء التي كانت عند تأسيسها خاصة بأسرة آل كاشف الغطاء وحولها الإمام (الشيخ محمد الحسين كاشف الغطاء) إلى المنفعة العامة، وأضاف إليها كتبه الخاصة وقد نوه بهذه المكتبة المرحوم جرجي زيدان في الجزء الرابع من كتابه تاريخ آداب اللغة العربية ص ١٢٨.



ومما يذكر عن مؤسس هذه المكتبة أنه كان ينسخ الكتب النادرة بخطه وقد دخل عليه مرة المرحوم الشاعر علي الشريقي فرآه وهو قد شارف التسعين من عمره جالساً على الأرض وأمامه طاولة صغيرة عليها كتاب مفتوح ومحبرة، وقد شدّ على عضده مساطر خفيفة من الخشب شداً محكماً يمنع الرعشة التي في يده وكان لابساً ثوباً سميكاً خصص للكتابة يرى مخططاً بألوان مختلفة من مسح القلم ورذاذه وكان في يده قلم من الخيزران القوي، وكان مشغولاً بالنسخ فلما سأله عن عمر ذلك الثوب قال: إن عمره يناهز السبعين وهو عندي أطيب من الغلالة التي يصفها الشاعر بقوله:
كأذيال خود أقبلت في غلالة مصبغة والبعض أقصر من بعض



وقد تعرضت النجف لنكبة علمية، يوم أمر طغرل بك بإحراق المكتبة الشيعية حقداً منه على الشيعة وكانت قد أنشئت في عهد (أبي نصر سابور بن أردشير) وزير بهاء الدولة البويهية سنة

٣٨١هـ في بغداد، وكان من أشهر الذين ارتادوها أبو العلاء المعري، وكان يعنى بها الشريف المرتضى.



ثم نقلت المكتبة إلى النجف فأخذ العلماء يهدون إليها مؤلفاتهم بخطوطهم هم أنفسهم وقد ذكر هذه المكتبة ياقوت الحموي قال: «وبها خزانة الكتب التي أوقفها الوزير (أبو نصر سابور أردشير) وزير بهاء الدولة بن عضد الدولة ولم يكن في الدنيا أحسن كتباً منها كانت كلها بخطوط الأئمة المعتمدة وأصولهم المحررة»^(١).

وقد ذهب بعض المؤرخين إلى أن تاريخ النجف العلمي يبدأ مع ابتداء السكن فيها أي منذ القرن الثاني للهجرة أو بعده على الأقل.



وقد أنجبت النجف في كل أدوارها عدداً عظيماً من العلماء والأدباء والشعراء والخطباء الأفاضل والمجتهدين المتفوقين، ما جعلها تترعب على عرش المجد العلمي والأدبي.



وقبل أن نودع النجف الأشرف، لا بد لنا من الإشارة إلى كلية الفقه في النجف وهي كلية أجازت فتحها وزارة التربية العراقية في ٣٠/١١/١٩٥٨ وفي ٢٩/١٢/١٩٦٢ اعتبرت جامعة بغداد شهادتها شهادة جامعية أولية، وتشتمل اليوم على أكثر من مائتي طالب وهي تمنح خريجها شهادة (البكالوريوس) في اللغة العربية وعلوم الشريعة الإسلامية.



ومن مجلات النجف: مجلة الإيمان لصاحبها الشيخ موسى اليعقوبي نجل المرحوم الشيخ محمد علي اليعقوبي شيخ خطباء النجف، كان شاعراً خطيباً بجملة مدققاً وقد أورث نجله الشيخ موسى وصادق اليعقوبي مكتبة تضم (٣٥٠٠) كتاب منها خمسمائة مخطوطة وأكثر هذه المخطوطات بين نادر أو لا وجود له إلا في مكتبة اليعقوبي.



وهكذا ألقينا نظرة كلها إجلال لمدينة النجف الأشرف ولعلمائها ولأدبائها وخطبائها وتوجهنا إلى الكوفة.



(١) موسوعة العتبات المقدسة لمؤلفها الأستاذ جعفر الخليلي ص ٢١٥-٢١٦ نقلاً عن معجم البلدان ج ٢ ص ٣٤٢.